

المجتمع البدوي ودوره في نشأة العصبية عند ابن خلدون - دراسة نظرية

تحليلية من خلال المقدمة

• كرابية أمينة

• جامعة عبد الحميد ابن باديس - مستغانم - krabia@hotmail.fr

تاريخ النشر: 2019-05-29

تاريخ القبول: 2018-10-28

تاريخ الارسال : 2018-02-21

الملخص : يتلخص هذا المقال لدراسة نظرية حول المجتمع البدوي عند ابن خلدون ودوره في نشوء العصبية كظاهرة اجتماعية سياسية ، كما نوضح من خلاله على أن ابن خلدون يعتبر أول من تحدث عن علم اجتماع البدوي هذا الفرع من فروع علم الاجتماع العام الذي يهتم بدراسة ظاهرة البداوة في المجتمعات العربية ، وهو يرى أن شرط نشوء العصبية هو المجتمع البدوي أو العمران البدوي كما يسميه بصفة عامة والقبيلة بصفة خاصة ، وذلك من خلال نصوصه في المقدمة كقولهِ : .. في أن سكنى البدو لا يكون إلا للقبائل أهل العصبية ، ولهذا حاولنا تحليل النصوص التي يتحدث فيها عن هذه الظاهرة وعلاقتها بالحياة البدوية . إذن المقال عامة جاء لوضح ويجدد الخلدونية من خلال تحليل نصوص مقدمة ابن خلدون في إثراء البحث العلمي النظري في علم اجتماع البدوي كما يوضح للكثير من المهتمين بمجال الدراسات الخلدونية خاصة وعلم اجتماع عامة في أن البداوة والعصبية والقبيلة عناصر أو عوامل أساسية لا يكتمل الواحد منها إلا بالثاني .

الكلمات المفتاحية : العصبية ؛ العمران البدوي أو علم اجتماع البدوي ؛ القبيلة ؛ القرابة .

Bedouin society and its role in the emergence of « lassabia » in Ibn Khaldun - an analytical theory study through the Al-Mukhadima

Abstract: This article is meant to study a theory about the Bedouin society as seen by Ibn khaldoun and the role it plays in the emergence « lassabia » of tribal sectarianism as a social and political phenomenon .we shall according by explain how Ibn khaldoun was the first to speak about the Sociology of the Bedouin which is considered as one of the branches of general sociology. It is interested in the study of the Bedouin societies phenomenon. Ibn khaldoun considers that the Bedouin society and tribalism in particular are the main criterion for the emergence of sectarianism . his texts in “Al-Mukhadima” are indicative of such an approach. He says:”the Bedouin house (home) is only for the tribes, people of sectarianism “In our study, we try to analyse the texts in which he tackles this phenomenon and its relation with the Bedouin life. Therefore, this article aims at shedding light on Ibn khaldoun’s approach this is done through analyzing texts in “Mukadima Ibn khaldoun “which enrich theoretical scientific study in relation with Bedouin Sociology. Moreover, all those who are interested in Ibn khaldoun in particular and Bedouin sociology in general have the opportunity to understand how Bedouin and sectarianism along with tribalism are interrelated and complementary.

Key words: lassabia, Sociology of the Bedouin, kindred, Kinship

تمهيد :

من أبرز ما أوضحته النظرية الخلدونية هي انقسام المجتمع عامة إلى مجتمعين مجتمع بدوي ومجتمع حضري وبما أن ابن خلدون ينتهي إلى النظرية التطورية فإنه قسم ذلك من خلال ما لاحظته من تطور للمجتمع البدوي بانتقاله من البداوة إلى الحضارة من خلال ظاهرة العصبية التي غايتها الملك حسب ما يقول. نظر ابن خلدون إلى أحوال مجتمعه ووجد أن هناك فئتين، فئة أساس فئته، فالبدو أساس الحضرة، وهناك اختلاف بين الفئتين إلى حد التضاد والتصارع دائما، ولهذا يمكننا إبراز أهم ملامح العمران البدوي عند ابن خلدون، بالحديث أيضا عن نقيض البدو والذين هم الحضرة حتى نفهم طبيعة هذا العمران ولعله أول عالم على الإطلاق عني بشرح ظاهرة البداوة، أو العمران البدوي حيث أوضح خصائص هذه الظاهرة، وكيفية تطورها، كما نجد أبرز ما أوضحته نظريته هي أن العصبية أساس البداوة، ولهذا علينا أن نتعرف على المجتمع البدوي، وأبرز خصائصه ومكوناته كالعائلة والقرابة والنمط المعيشي للبدو هذا كله لفهم الرابطة العصبية، وكيفية نشوؤها في العمران البدوي ومراحل تشكلها وتطورها عبر الزمن لتصل إلى العمران الحضري.

1. المقصود بالعمران البدوي أو المجتمع البدوي عند ابن خلدون:

« العمران من العمارة، والتعمير وهو التساكن والتنازل في مصر، أو حلة للأُنس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم (الناس) من التعاون، على المعاش.»⁽¹⁾ فالعمران البدوي هو ما نسميه بالاجتماع البدوي، وله علم خاص وهو علم الاجتماع البدوي حديثا، يقوم هذا العلم بدراسة المجتمعات البدائية والبدوية بدراسة أهم الظواهر والخصائص، التي تتميز بها، فلقد عني هذا العلم -أي علم الاجتماع البدوي- «بتحديث ظاهرة البداوة وتتبع مختلف مظاهرها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية فضلا عن التعرف على طبيعة البُنيان الاجتماعي للمجتمعات البدوية بوجه عام، والتعرف على الخصائص الاجتماعية والنفسية والحضارية للجماعات البدوية بوجه خاص.»⁽¹⁾ كما أن البداوة التي قام ابن خلدون بدراستها تعتبر نمط من أنماط الحياة المجتمعية، وتعتبر بداية التكيف الاجتماعي لكل من الفرد والجماعة والمجتمع مع الظروف البيئية الصعبة والقاهرة التي أحاطت به وارتكز هذا التكيف سواء بالنسبة للإنسان أو الجماعة أو المجتمع البدوي على مجموعة من القيم والعادات والتقاليد والأعراف والنظم التي مكنته في النهاية من أن يحيا ويستمر على الرغم من العزلة شبه التامة المفروضة عليه.»⁽³⁾

كما يجمع معظم المؤرخين والعلماء على أن الإنسان بدأ حياته بدويا وظل على بداوته وتجواله حتى استقر على شواطئ الأنهار بعد اكتشافه للزراعة، فالعمران البدوي الذي اهتم ابن خلدون بدراسته وتحديد خصائصه هو تلك المجتمعات والقبائل التي تعيش حياة تقليدية، تتميز بالبساطة والضروري وعدم التعقيد، تعتمد على التماسك والتضامن في علاقاتها الاجتماعية، نظرا لقرابتها الدموية، وتتميز هذه القبائل بحالات بدائية متوحشة في بعض الأحيان مقارنة مع بدو آخرين أقل توحشا.

لقد أوضح ابن خلدون خصائص ظاهرة البداوة، دائما مقابل خصائص الحضارة في مقدمته، فإذا كان البدو شُجعان فإن الحضرة جُبناء، وإذا كان البدو متوحشون فإن الحضرة مترفون، وإذا كان البدو طيبوا الخلق، فالحضرة أفسدتهم الحضارة وجعلتهم مخادعين وكاذبين والبدو يدافعون عن أنفسهم أما الحضرة يفزعون لكل هزة وأكلوا أمر الدفاع للدولة أو يستأجرون من يتولى أمرهم، وإذا كان الحضرة يحترمون حقوق غيرهم فالبدو لا يؤمنون إلا بلغة السيف.⁽⁴⁾ لهذا أعطى ابن خلدون أهمية كبيرة للعمران البدوي حيث خصص باب في مقدمته سماه « العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال»⁽⁵⁾ وإذا تأملنا هذا الباب نجده يتكون من أهم عناصر تكوين المجتمع البدوي، وهي القبائل والأمم الوحشية وما يعرض في ذلك من ظواهر اجتماعية أخرى، كالقراية والنسب والعائلة، وفي هذا الباب نجد مجموعة من الفصول عن العمران، منها الفصل الثالث "في أن البدو أقدم من الحضرة وسابق عليه وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها". إذا حللنا هذا الفصل نجد صاحب المقدمة يُسبق البدو عن الحضرة، أي هم الأصل في العمران البشري عامة بمعنى أن العمران الحضري امتداد للعمران البدوي أو بالأحرى لا يكون هناك عمران حضري إلا بوجود العمران البدوي، فالضروري والحاجي يبدأ عند البدو، وهكذا فالعائلة والقراية والعصبية ظواهر اجتماعية من طبيعة العمران البدوي.

كما يستعمل صاحب المقدمة مصطلح البدو بمعنى سكنى البادية، «هؤلاء القائمون على الفلح والحيوان، تدعوهم الضرورة، ولا بد إلى البدو لأنه مُتسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفُدن والمسارح للحيوان وغير ذلك.... والبدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم»⁽⁶⁾ ويطلق العرب اسم البادية على من يعيش في الصحراء، كما يستعمل ابن خلدون مصطلح خشونة البداوة، ويقصد بها الظروف المعيشية القاسية ومجموع الصفات الجسمية والخُلقية وأنماط السلوك الفردي، والجماعي لأهل البادية ويقصد بهم على الخصوص البدو الرُحّل المتنقلون في الأراضي الصحراوية والشبه الصحراوية، ومن هذه الظروف الاقتصار على الضروري من العيش والشجاعة والانعزال والاعتماد على النفس وسكنى الخيام.⁽⁷⁾

«فالببدو إذن هم الذين يعتمدون على الضروري، في أحوالهم عاجزين عما فوّه فلا شك في أن الضروري أقدم من الكمالي، وسابق عليه لأن أول ما يحتاجه الإنسان هو الضروري ولا ينتهي إلى الكمالي والترّف إلا إذا تحقق له الضروري، فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة ... في أن سكنى البدو لا يكون إلا للقبائل أهل العصبية»⁽⁸⁾ هذا يعني أن أهل العصبية لا يعيشون إلا في البداية أي العصبية لا تكون إلا لدى البدو، وحتى إن وُجدت في الحضارة إلا أن أصلها بدوي وجذورها بدوية هذا ما يريد ابن خلدون قوله فالعصبية طبقاً لمفهومه تقوم في بنيتها على الالتحام بالنسب وصلة الرحم أو ما كان متصلاً بمعنى النسب مثل الولاء والحلف، ذلك لأن صلة الرحم طبيعية في البشر ومن دواعيها الدفاع عن ذوي القربى وأهل الأرحام فإن القريب يجد غضاضة في نفسه حين يرى ضيماً ينزل بذوي رحمه أو هلكة تصيبهم فينشط للدفاع عنهم ويمتثل ابن خلدون لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم مستنتجاً من معنى الحديث الشريف، أن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة، حيث نجده يتحدث عن الوازع وكيفية دفاع أهل البدو والحضر عن أنفسهم، فأهل البدو «لا يصدق دفاعهم وزيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد، لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم، إذ نُعرة كل أحد على نسبه وعصبيته أهم...»⁽⁹⁾ نخرج بفكرة من هذا المُقتبس وهي أن أهل البدو دفاعهم يكون بهذه الرابطة العصبية، أو الروح العصبية التي يربطها النسب الواحد، حيث نعلم أن النسب ينتج عن العائلة فالعدو يخشاهم إذا كانوا عُصبة أي رابطة قوية، لأنه إذا تعرض الحي للعدوان، سارع إلى الدفاع عنهم من خارج حامية الحي فتياهم المعروفين بالشجاعة، ويؤكد ابن خلدون على مدى جدية الدفاع فيقرر أنه لا يصدق دفاعهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم، فالرابطة العصبية عندما تكون متماسكة تدخل الرهبة إلى قلب العدو وبذلك يمتنع العدوان.⁽¹⁰⁾

وهنا نستنتج أن أهمية المجتمع البدوي بالنسبة لابن خلدون تظهر في نقطتين أساسيتين وهما:

أولاً: أن المجتمع البدوي يعتبر نقطة التطور الاجتماعي الذي يبدأ من البداوة ليصل إلى الحضارة مروراً بما هو ضروري وحاجي إلى ما هو كمالي وإضافي.

ثانياً: أن المجتمع البدوي هو التربة الخصبة التي تنشأ فيها العصبية بعامل النسب والقرباة كما يسميها البعض بالبنية السياسية، لأنه بها تتأسس الدولة ويبنى المُلْك في المجتمعات العربية حسب النظرية الخلدونية.

2. النمط المعيشي في المجتمع البدوي

إن الحياة أو النمط المعيشي في المجتمع البدوي كما يرى ابن خلدون هو حسب البيئة، فهي التي تحدد للبدو نوع طعامهم وكيفية حصولهم عليه وكذلك ملابسهم ومسكنهم، كما تحدد لهم أيضا حيواناتهم كما ونوعا والأكثر من هذا أن البيئة تُمارس تأثيرها على الإنسان نفسه من حيث لون بشرته ومدى قوته وضعفه. (11) يقول ابن خلدون «ومن هذا العمران ما يكون بدويا، وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلل المنتجة في القفار وأطراف الرمال.» (12) هنا يحدد لنا المناطق التي يتواجد فيها البدو، وهي الضواحي والجبال والقفار والصحاري، فالتوحش هو أقصى أنواع البداوة حيث يربط البداوة بالضرورة من العيش، سوء غداء أو لباس أو مسكن لأن «البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمسكن وسائر الأحوال والعوائد، ومقتصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة، إنما هو قصد الاستغلال والكن لا ما وراءه وقد يُؤوّن إلى الغيران والكهوف، وأما أقواتهم فيتناولون بها يسيرا بعلاج أو بغير علاج البتة إلا ما مسته النار، فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المُقام به أولى من الظعن، وهؤلاء سكان المُدر والقرى والجبال، وهم عامة البربر والأعاجم...» (13)

وهناك بدو آخرون يصفهم ابن خلدون على أنهم كل من كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فيهم طُعن في الأغلب لارتياح المسارح والمياه لحيواناتهم، فالتقلب في الأرض أصلح بهم، ويسمون شاوية ومعناه القائمون على الشاة، والبقر ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة، وهؤلاء مثل البربر والترک و إخوانهم من التركماني والقالبة، وأما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعنا وأبعد في القفر مجالا، لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغني بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقر وورود مياهه الملحة وتقلب فصل الشتاء في نواحيه، فرارا من أذى البرد إلى دفء هوائه وطلبها لما خض النتاج في رماله، إذ الإبل أصعب الحيوانات فصلا ومخاضا وأحوجها في ذلك إلى الدفء فاضطروا إلى إبعاد النُجعة وربما زادتهم الحامية على التلول أيضا فأوغلوا في القفار نفرة عن الضُعة منهم، فكانوا لذلك أشد الناس توحشا ينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوانات العجم وهؤلاء هم العرب، وفي معناهم ضُعون البربر وزنانة بالمغرب والأكراد والترکمان... إلا أن العرب، أبعد نُجعه وأشد بداوة لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشاة والبقر معها. (14)

نلاحظ من خلال هذا النص أن ابن خلدون شرح جيدا حياة البدو أو نمط حياتهم، وكيفية عيشهم حيث وضعهم على مستويات ثلاثة، تبعا لدرجة ضعفهم في الصحراء وبعدهم عن الحضارة فالبدو الذين يعتمدون على الإبل في معاشهم أطلق عليهم لفظ الإبلية، أي رعاة الإبل ثم يليهم الشاوية، أي أصحاب الشاة وهم رعاة الضأن، ووضع معهم على نفس الدرجة البقارة أي رعاة البقر، ثم يأتي الممتنون للزراعة، وهم الذين مارسوا نوعا من أنواع الاستقرار في الواحات وحول الآبار والوديان أو عند المراكز الحضرية القريبة. كما توجد أيضا الجماعات البدوية التي تعيش في قلب الصحراء ومن الطبيعي أن يكون دليلها إلى ذلك الجمل، وهناك البدو الذين يعيشون في أطراف الصحراء، منهم الشاوية، وكذلك من يعيش بالقرب من المجاري المائية، وعند حواف المناطق الزراعية والماء على اعتبار أنه يشكل هدفا رئيسيا لتجوال البدو، حيث يجدون إلى جواره كل أسباب الحياة، والخصب فالماء هو أهم ما يحتاجه البدو، إضافة إلى المرعى حيث يُعد الكلاً من أهم العوامل التي تحرك البدو وتحدد طبيعة تجوالهم، كما يعتمد النمط المعيشي في العمران البدوي على الترحال والتنقل سعيا وراء مصادر القوت، خصوصا الصحراوية. ويمكننا أن نحدد طبيعة هذا الترحال ومداه بصورة واضحة كالتالي: الارتحال الاختياري أو العادي، الارتحال الطارئ أو الاضطراري.

الارتحال الاختياري أو العادي: يتم تحت الظروف العادية التي اعتادتها الجماعة الرعوية وفي نطاقها المكاني المعروف لها، أي حسب وجود الماء أو الكلاً. أما الاضطراري: فيحدث عندما تتغير الظروف المناخية أو الطبيعية فجأة ولا تجد للجماعة البدوية مخرجا سوى ترحالا سريعا يشبه الهجرة، ويكون أيضا الترحال اضطراريا حسب المواسم أو الفصول، فقد ترحل الجماعة البدوية من منطقتها في بداية كل شتاء إلى مساح أخرى تكون أقل برودة وأوفر عشباً وماءاً ثم ما تلبث هذه الجماعة المرتحلة أن تعود إلى موطنها من جديد، فرحلة الشتاء والصيف معروفة منذ القدم يمارسها البدو في مختلف صحاري العالم طبقا لمواسم سقوط المطر ونمو الحشائش.⁽¹⁵⁾

إذن البدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما، لأن أول مطالب الإنسان الضروري ولا ينتهي إلى الكمالي والترف إلا إذا كان الضروري حاصلًا فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة، لهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري إليها.⁽¹⁶⁾ إضافة إلى هذا يتضح لنا من خلال قراءة نصوص المقدمة حول البدو ونمط حياتهم أن ابن خلدون وضع تصنيفات خاصة لنمط عيش البدو وتتضمن هذه التصنيفات ثلاث أنواع اجتماعية وهي: البدو الأقحاح، نصف البدو المنتجعون والمزارعون.

أولاً: البدو الأقباح : وهم لا يملكون إلا الإبل (الجمال) ومن المعروف أن الجمال لا يعيش إلا في الصحراء، فهؤلاء البدو يعيشون على تربية الإبل في القفار والصحاري أين يوجد ما يحتاجه الجمال من نباتات شوكيه ومناخ ملائ، فيجدون أنفسهم مضطرين إلى أن يتوغلوا كثيرا في المناطق المقفرة ويسكنون الخيام بحكم تنقلاتهم الدائمة ولا يبنون كثيرا بسبب تنقلهم للبحث عن المراعي والمياه هذا ما يدل على الحياة القاسية التي يعيشونها لقوله: «إذ الإبل أصعب الحيوان فصلا ومخاضا وأحوجها في ذلك إلى الدفاع، فاضطروا إلى إبعاد النُجعة»⁽¹⁷⁾ وربما زادتهم الحامية على التلول أيضا فأوغلوا في القفار نفرة عن الضعة، منهم فكانوا لذلك أشد الناس توحشا... بسبب نمط حياتهم الذي يعتمد على الإبل.⁽¹⁸⁾ هذا دليل على أنهم يعيشون قساوة البداوة.

ثانياً: نصف البدو المنتجعون: وهم الذين يعتمدون على تربية المواشي سماهم ابن خلدون بالشاوية يهتمون في معاشهم بالغنم والبقر، ويرتحلون للبحث عن المسارح والمياه لحيواناتهم ويسمون نصم منتجعون أو أقل ترحالا من البدو رعاة الإبل، ويعتبرون نصف متوحشين وأقل خشونة من البدو الأقباح، يسكنون الخيام تارة والأكوخ تارة أخرى.⁽¹⁹⁾

ثالثاً: البدو المزارعون: وهم الفلاحون الذين يهتمون بالزراعة أكثر مما يهتمون بتربية المواشي حالهم هذه تدفعهم بالضرورة إلى الاستقرار في مكان معين وإلى المواظبة على العمل أكثر من البدو الذين تحدثنا عنهم، إضافة إلى هذا لا يتنقلون إلا نادرا ولا يبتعدون كثيرا عن أرضهم ويسكنون الجبال والسهول الواسعة المجاورة للحضر في القرى وكثيرا ما يختلطون بهم.⁽²⁰⁾ لقول ابن خلدون «فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلاح كان المقام به أولى من الطعن وهؤلاء سكان المُدر والقرى والجبال وهم عامة البربر والأعجام»⁽²¹⁾ هذا الصنف هم الأقل توحشا لعدم تنقلهم بكثرة واستقرارهم الجزئي زد على هذا فإن أهل البادية عامة بوسائل ومقاتلون لأنهم يعيشون جماعات منعزلة ومتنقلة على الدوام بحكم نمط معيشتهم وظروفهم وطريقتهم المستعملة في الإنتاج كما قلنا وفوق ذلك كله فإنهم ليسوا في حاجة إلى أسوار ولا أبواب كالمدن يقضون حياتهم خارج الأسوار فهم القائمون بالمدافعة عن أنفسهم ضد الجماعات الأخرى التي تريد الاعتداء عليهم، وما يساعدهم على ذلك عيشتهم ضمن جماعات قرابية المتمثلة في العصبية وهي التي تربط هؤلاء الأفراد الأقارب برابطة سيكولوجية، تجعلهم يتعصبون، عندما يكون هناك داع للتعصب.⁽²²⁾

وقد يتمثل هذا الداعي للتعصب غالبا من أجل الغذاء أو الأمن الغذائي، وفي حالة العدوان الخارجي من طرف قبائل أخرى، حيث يعتبر الأمن الغذائي شيء ضروري للعيش، فإذا وفروا لأنفسهم ما

هو ضروري يكتفون، أما في حالة عدم توفيرهم لذلك لسبب من الأسباب فإنهم يلجئون إلى طرق أخرى للحصول على الضروري وذلك عن طريق الغزو فتجدهم يختصمون باستمرار على مواطن الرزق بل ولا يجدون حرجا في الاعتداء على الممتلكات والأموال.» فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه امتدت يده إلى أخذه»⁽²³⁾ هذا صراع بين البدو من أجل لقمة العيش والبقاء، فالقبيلة تشعر بأن الأرض التي تكسب منها عيشها هي أرضها ما دامت تُقيم فيها وتحتلها وكل محاولة من جانب أي غريب سواء أفرادا أو جماعة تستهدف الاستفادة من هذه الأرض تُعتبر في نظر العُصبة أو القبيلة عدوانا صريحا يجب دفعه وهنا الملكية جماعية، بمعنى أن أفراد القبيلة يشتركون كلهم في ملكية الأرض، أي أن القبيلة كلها شخص واحد باعتبارها عصبية واحدة.⁽²⁴⁾

فالبدو المشغولين بتحصيل عيشهم طوال الوقت خاضعين للطبيعة وتحت رحمتها فهم أغنياء إذا جاءت المياه والغُشب وفقيرين ومهددين بالفناء إذا فقدوا ذلك، فعندما تجد الجماعة البدوية نفسها مهددة بالموت تحت الظروف الطبيعية القاسية كالجراد الفيضانات والأمراض فإنها لا تجد حلا سوى الهجوم على قبائل ومواطن أخرى التي تعيش في ظروف حسنة، نجد هذه الظاهرة في المناطق القليلة الخصب كالمناطق الصحراوية، حيث يضطر السكان دائما للتنقل طلبا للماء والمرعى مستعدين في رحلتهم لمواجهة كل من يعترض طريقهم.

3. الأمن في العمران البدوي ووسائل الحفاظ عليه:

إن الملكية مشاعية في المجتمع البدوي، هذا يعني أن الأراضي والأودية والآبار والماشية ملك للجميع، أما الملكية الفردية أو الخاصة فهي تتمثل في الأمتعة والأدوات الشخصية كالأسلحة والملابس والأواني وغيرها من الأدوات والمعدات الشخصية تعتبر ملكا خاصا لحائزها ولا سلطان لغيره عليها وعلى الرغم من أن ملكية الفرد البدوي لأمتعته وأدواته الشخصية مكفولة وباعتراف المجتمع إلا أن حق الاستغلال كثيرا ما يكون مشاعا، خصوصا بين أعضاء الأسرة البدوية ابتداء من الأمتعة والأدوات حتى الملابس، وفي كثير من الأحيان يقوم رئيس القبيلة بتوزيع المراعي بالعدل، على مختلف الفصائل أو يمنع الاقتراب من مرعى معين حتى يشب عوده أو يمنع استنزاف بئر ما.⁽²⁵⁾

«فالجماعات البدوية جماعات مسلحة باستمرار، أرزاقها في رماحها لا تفرق بين ما يمكن أن تمنحه الأرض بسخاء وبين ما يمكن أن تسلمه الأيدي المغلوبة على أمرها.»⁽²⁶⁾ يعني هذا أن السلاح عنصر أساسي في كسب القوت لدى البدو، وتتوصل إلى أن الأساس الموضوعي الذي تقوم عليه الرابطة

العصبية، هو المصلحة المشتركة التي تشكل فيها أمور المعاش العنصر الرئيسي الفعال، فتقوم على تنازع البقاء والكفاح من أجل العيش في إطار وحدة العُصبة وتضامن أفرادها. فهي دائما في حالة دفاع مادام هناك خطر خارجي يهدد استقرارها.

ينطلق ابن خلدون في تصوره للعصبية، من فكرة الوازع الذي يدفع العدوان الواقع على أحياء البدو من الخارج، أي أنه يعتبر العصبية وازعا يرد العدوان فالأفراد في المجتمع البدوي يزغ بعضهم البعض مشايخهم وكبرائهم، أما خارج القبيلة أي الخطر الخارجي يدافع عنها حامية الحي وفتيانهم المعروفين بالشجاعة ولكن لا يصدق دفاع هؤلاء الأفراد إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد، وهنا يتضح أن العصبية تبرز في حالة الدفاع حتى ترهب العدو بسبب تماسك الأفراد وتربطهم⁽²⁷⁾ «لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم...»⁽²⁸⁾ فالعصبية هنا تقوم بنفس الدور الذي يقوم به الأسوار والجند في العمران الحضري، أي أنها قوة للمواجهة لا وازع للفصل بين المنازعات كما يقوم كبراء القبيلة. ولهذا عرفها محمد عابد الجابري على أنها «رابطة اجتماعية سيكولوجية شعورية، ولا شعورية معا تربط أفراد جماعة ما قائمة على القرابة ربطا مستمرا يبرز ويشدد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد كأفراد أو كجماعة»⁽²⁹⁾ حيث يعتبر هذا التعريف الأقرب لمفهوم العصبية، فلماذا يمكننا القول أن «الخطر الخارجي من الأسباب الموضوعية التي تشكل العصبية وهذا يكمل في المصلحة الجماعية البدوية المتألفة من مجموعة عشائر وقبائل ذات نسب واحد تتكون من أجل الدفاع عن نفسها ضد الاعتداءات التي تهدد حياتها والفرد يقوى ويرتاح بشعوره كأنه جزء لا يتجزأ من الفرد الأكبر الذي هو القبيلة»⁽³⁰⁾

يعني هذا أن الأسر في المجتمع البدوي ذات نسب واحد أو تربطهم علاقات قرابية واحدة هذا ما يؤدي إلى دفاعهم الواحد عن الآخر ضد العدوان الخارجي، وهنا يبرز التضامن القرابي بشكل أكثر وضوحا لأنه قد تحدث صراعات داخلية بين الأقارب والعائلات إلا أنه يوقفهم وازع داخل القبيلة، وهم المشايخ وكبراء القبيلة أما العدوان الخارجي على القبيلة يوقفه أفرادها، وهذا يعني أن العدوان الخارجي لا يتم إيقافه أو التغلب عليه إلا إذا كان هؤلاء المدافعين عصبية واحدة وأهل نسب واحد أي ينتمون لأسرة واحدة. هذا ما يريد ابن خلدون توضيحه وخاصة عندما يقول «لا يصدق دفاعهم وزيادهم، إلا إذا كانوا عصبية، وأهل نسب واحد لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم، إذ نُعرة كل أحد على نسبه وعصبيته أهم»⁽³¹⁾ لأن أفراد الأسر في القبيلة عندما يتضامون للمدافعة أو المطالبة يخشاهم العدو لتضامهم وقوتهم، ولأنهم من نسب واحد فالدخيلين على القبيلة، أي الذين ليسوا من أسرة واحدة أو قرابة واحدة لا يدافعون بصدق عن تلك القبيلة، لأنهم ليسوا أفرادها الصريحين. «وأما المتفردون في

أنسابهم فقل أن تصيب أحدا منهم نعمة، على صاحبه إذا أظلم الجو بالشر يوم الحرب، تسلل كل واحد منهم يبغي النجاة لنفسه، خفية واستيحاشا من التخاذل.»⁽³²⁾

ينطلق إذن ابن خلدون في تصوره للحفاظ على الأمن الداخلي، من فكرة الوازع، أما الأمن الخارجي فمن خلال العصبية والفتيان الشجعان في القبيلة المنتمين لنفس العصبية.

4. الأخلاق البدوية المؤسسة للسلطة عن طريق العصبية:

تعتبر الأخلاق البدوية حسب صاحب المقدمة خصائص بدوية تعد العامل المحدد لنشأة الدولة وازدهارها وذلك لأن البدو يتصفون بأخلاق وصفات بدوية تُقوي السلطة، وتهيؤهم لقيام الملك ومن أهم هذه الصفات لديهم هي الخير، الشجاعة، التوحش، التقشف إضافة إلى التعاون، والتضامن في الحزن والفرح.⁽³³⁾ وهنا يؤكد ابن خلدون في الفصل الرابع من الباب الثاني من مقدمته، في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة ذلك أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى، كانت مهياً لقبول ما يرد عليها ويتطبع فيها من خير وشر، أي أن النفس البشرية تتأثر بما يحيط بها من بيئات مختلفة، فالذي يعيش في بيئة خيرة سبقت إلى نفسه عوائد الخير، وحصلت بها ملكته بعد عن الشر وصعب عليه طريقه، وكذا الأمر لصاحب الشر فإذا سبق للنفس الخير صعب عليها اكتساب الشر والعكس صحيح.

ومن ثم كانت الأخلاق ظاهرة من صنع المجتمع فحتى ولو أراد الفرد المحافظة على أخلاق البادية التي أوصلته إلى الملك فإنه ليس بإمكانه ذلك بصفة مطلقة لأنه يستمد أخلاقه من المجتمع الذي يعيش فيه والمجتمع بدوره خاضع في أخلاقه للأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، فهو إما أن يكون بدوياً أو حضرياً، ولا بد له في كل من هاتين الحالتين أن يتخذ من الأخلاق ما يلائمه وينسجم معه. وبهذا المنطق يمكننا أن نفهم لماذا يخص ابن خلدون كل جيل من أجيال تطور المجتمع البشري بمجموعة من الخصائص والخلال تختلف بل وقد تناقض تماماً مع أخلاق الجيل الذي سبقه، فليست لتلك الخصائص طبائع ثابتة، جبل عليها الناس بطبيعة تكوينهم العقلي أو البدني، إنما هي في رأي ابن خلدون، ناشئة من جراء كونهم يعيشون في ظروف اجتماعية، تضطرهم إلى التخلق بها، وهي إذن لا بد أن تتغير فيهم تبعاً لتغير الظروف.⁽³⁴⁾

هذا ما نراه لدى الحضرة لكثرة ما يجدون من فنون الملاذ وعوائده الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها يؤثر عليهم في أخلاقهم، فتتلون أنفسهم ويتعدون عن طرق الخير وتذهب عنهم الحشمة في أحوالهم وانغماسهم في الملذات جعلهم أقرب إلى الشر منهم إلى الخير، لأن الإنسان إذا

استسلم للملذات يستخدم كل وسائل المذلة هذا لا يعني أنه لا يوجد في البدو أناس أشرار إلا أنهم مرتبطون بالضرورة من المعاش فقط فعلاجهم أسهل من أهل المدن الذين فسدت أخلاقهم لا يمكن أن يعالجوا لأنهم وُلدوا في محيط الفساد حسب ابن خلدون.

والعصبية التي تلعب دورا كبيرا في تأسيس السلطة استنادا بالأخلاق البدوية تُعرف لغة على أنها اسم مؤنث منسوب إلى عَصَب وهو مصدر صناعي من عَصَب: دفاع بشدة عمّن يُتَعَصَّبُ لهم وحماس شديد في الميول لهم والدِّفاع عنهم عصبية قومية / قبلية. اعتصب شد العصابة وهي العمامة، لفها ولوهاها على رأسه، والقوم صاروا عصابة اشتد أمرهم ويقال تعصب له وتعصب معه بمعنى نصره واعصوب القوم أي تجمعوا واشتدوا.⁽³⁵⁾ كما تُعرّف العصبية في لسان العرب « على أنها مشتقة من لفظ عصب الذي يعني حرفيا ربط، تجمع شدّ أحاط، اجتمع، فعصبية الرجل، بنوه وقرابته وكل شيء استدار به، نقول عَصَب الرأس بمعنى ربطه، وهي تدل على رابطة دموية وتلاحم الأرحام، منذ القديم أي قبل مجيء الإسلام »⁽³⁶⁾. أما اصطلاحا فأقرب تعريف لها هو تعريف محمد عابد الجابري على أنها رابطة اجتماعية سيكولوجية شعورية ولاشعورية تربط أفراد جماعة معينة قائمة على القرابة المادية أو المعنوية، ربطا مستمرا يبرز ويشد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد كأفراد أو كجماعة. ويعرفها ابن خلدون العصبية هي الالتحام بالنسب أو فيما معناه...⁽³⁷⁾

فكلما بدأت العصبية تفقد أخلاق البداوة التي أوصلتها للملك واكتسبت أخلاق الحضارة فسُد العمران في نظره «وأهل الحضرة لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائده الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوثت أنفسهم بكثرة مذمومات الخلق والشر وبعُدت عليهم طرق الخير، ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك... أما أهل البدو وإن كانوا -كما قلنا- مقبلين على الدنيا... إلا أنه، في المقدار الضروري لا في الترف، ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها فعواندهم في معاملاتهم على نسبتها، وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضرة، أقل بكثير فيهم أقرب إلى الفطرة الأولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقُبْحها فيسهل علاجهم عن علاج الحضرة»⁽³⁸⁾

إذن «الحضارة نهاية العمران وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشر والبعد عن الخير»⁽³⁹⁾ فأساس العمران هو الخلال الحميدة، وأخلاق الخير لأن «الإنسان أقرب إلى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة، لأن الشر إنما جاء من قبل القوى الحيوانية التي فيه وأما من حيث هو إنسان فهو إلى الخير وخاله أقرب، والملك والسياسة إنما كانا له من حيث هو إنسان، لأنها خاصّة

للإنسان لا للحيوان، فإذا خلال الخير فيه هي التي تناسب السياسة والملك، إذ الخير هو المناسب للسياسة⁽⁴⁰⁾ الإنسان كائن سياسي لأنه خير والمجد السياسي له أصل ينبي عليه وهذا الأصل هو العصبية ومن فروع هذه العصبية هي خلال الحميدة، وبما أن الملك غاية العصبية والخلال فروعها، فإن الملك ينبي على خلال الحميدة. فصاحب العصبية يجب أن تكون لديه خلال حميدة، ليصل إلى الملك. لأنها كما قلنا تعتبر من أقوى العوامل المدعمة للنظام السياسي والاجتماعي، فكلما تمسكت دولة بالفضائل وأحسن التصرف، كلما ازدادت قوة وتوسعا لأن الناس كلهم يؤيدونها ويؤازرونها ويحمدون أفعالها ويتعاونون معها، ويعتبرونها قدوة حسنة فينهجون نهجها إضافة إلى خلال الحميدة للبدو صفة أخرى وهي الشجاعة والمروءة وكذا التوحش، يُثبت ابن خلدون أن البدو أقرب للشجاعة من أهل الحضرة لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية وانتباههم عن الأسوار والأبواب. حيث يرى ابن خلدون « أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها... لما كانت البداوة سببا في الشجاعة... لا جرم كان هذا الجيل الوحشي أشد شجاعة من الجيل الآخر، فهم أقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الأمم »⁽⁴¹⁾. كما أن الشجاعة والتوحش من العوامل التي تسمح للدولة بالتوسع، في ملكها لقول ابن خلدون: « في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع »⁽⁴²⁾ يعني هذا أن الإنسان البدوي، يدفع العدوان بنفسه على عكس الإنسان الحضري، يتكل على غيره على الحاكم والشرطة والجند، فأهل البدو ليس لهم والي أو شرطة تحمهم، فهم موجودون على أرض مفتوحة بعيدة عن الحامية معرضون للاعتداءات لهذا يحملون معهم السلاح دائما.

5. أهمية القرابة في نشوء العصبية داخل العمران البدوي:

تعتبر العائلة أولى الروابط الاجتماعية التي يعيش الطفل منذ ولادته فيها، فيجد نفسه مرتبطا بها طبيعيا، لأن العلاقة تبدأ مع أسرته ثم تتوسع إلى أقربائه القريبين ثم البعيدين. كما تعد العائلة أبسط النظم الاجتماعية، تقوم على الدوافع الفطرية وصلات الدم ويرى معظم علماء الاجتماع أن « نظام العائلة يقوم على اصطلاحات، يرتضيها العقل الجمعي وقواعد تختارها المجتمعات وتختلف وظائف العائلة باختلاف الهيئات والمجتمعات والعصور، وقد تشمل العائلة كل الوظائف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية، كما هو حال الأسرة البدوية »⁽⁴³⁾ لهذا يجد الفرد نفسه ينتهي إلى أسرتين بعد ولادته، وهي أسرة عن طريق الأب وأسرة عن طريق الأم، فيرتبط أفراد الأسرتين بطائفة كبيرة من الروابط الاجتماعية والقانونية وبكثير من الحقوق والواجبات، حيث ينتج عن هذه الروابط

الاجتماعية الدموية، رابطة قرابية ولهذا تعتبر القرابة علاقة اجتماعية تعتمد على الروابط الدموية، وهذه الروابط هي التي جعلت العائلة البشرية تتميز عن العائلة الحيوانية.⁽⁴⁴⁾

وعلى هذا فالقرابة كنظام اجتماعي يوجد في كل المجتمعات الإنسانية، ويبدو واضحاً في المجتمع البدوي، لأنه يشكل رابطة اجتماعية قوية بين أفراد النسب الواحد. فهي علاقة بين أشخاص مجتمعين نتيجة نفس الدم، أو المصاهرة بالزواج⁽⁴⁵⁾، كما يعرفها علماء الأنثروبولوجيا على أنها العلاقات العاصبة التي تقوم على روابط الدم، ومع ذلك فإن العلاقات الزوجية التي تشتمل على علاقات النسب والمصاهرة تشكل في العادة جزءاً أساسياً في نسق القرابة أي أن القرابة بالمعنى الأنثروبولوجي هي اعتراف وقبول اجتماعي للروابط البيولوجية.⁽⁴⁶⁾ ومن خلال تحليلنا لنصوص ابن خلدون في المقدمة نجده لم يتحدث عن العائلة أو الأسرة بشكل واضح، وإنما تحدث عنها ضمناً من خلال صلة الرحم والنسب الذي يعد عنصراً مرتبطاً بالأسرة لأنه لا وجود لنسب أو قرابة بدون وجود العائلة. هذا يعني أن العصبية لا تشكل إلا بأفراد النسب الواحد كما يقول صاحب المقدمة، في أن العصبية إنما « تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه »⁽⁴⁷⁾ أي أنه ينتج عن النسب إلتحام، وهذا الالتحام هو فائدة القرابة أو هو العصبية وذلك أن « صلة الرحم طبيعي في البشر إلا في الأقل »⁽⁴⁸⁾.

إذن الإلتحام يكون بصلة الرحم التي هي القرابة وهي ظاهرة طبيعية فطرية في الإنسان يجد نفسه مرتبط بها منذ ولادته ولا يتحكم فيها، ولهذا يعتبر نظام القرابة من أهم الأسس، التي يتركز عليها نظام الجماعات الثقافية التضامنية، فالعصبية تتولد ضمن القرابة على أساس الالتحام الدموي، لينشأ الشكل الأكبر بدائية للعصبية عن الرغبة الطبيعية للإنسان في أن يتعاطف مع أقربائه، ويساعدهم ويدافع عنهم فصلة الرحم طبيعية في البشر والنسب أساس العصبية ومصطلح الوصلة، الذي تعني العلاقة بين الانحدار والالتحام، أي بين العصبية والنسب فيتضح لنا أن صلة الرحم مصدرها من مصادر العصبية إضافة إلى النسب، رغم أننا نجده في نص آخري نفي أهمية النسب، ولكن هذا النفي يشترط فيه عدم وضوح النسب وهكذا نفهم أنه لا يناقض مع نفسه وإنما نفي النسب يحدث في حالة وجود خلل فيه نطرح التساؤل التالي-كيف يكون النسب مفيداً وفاعلاً بالنسبة للعصبية وغير مفيد وضار بالنسبة للعصبية ذاتها؟

يمكننا أن نجيب بأن النسب يكون فاعلاً ومفيداً عندما يكون واضحاً أما إذا خرج عن الوضوح أصبح لا منفعة له « إذ النسب أمر وهي لا حقيقة له ونفعه إنما هو في هذه الوصلة والالتحام، فإذا كان ظاهراً واضحاً حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما قلناه، وإذا كان إنما يُستفاد من الخبر البعيد،

ضعف فيه الوهم وذهبت فائدته، وصار الشغل فيه مجانا، ومن أعمال اللهو المنهي عنه ومن هذا الاعتبار معنى قوله النسب علم ينفع وجهالة لا تضر، بمعنى أن النسب إذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس وانتفت النعرة التي تحمل عليها العصبية فلا منفعة فيه حينئذ.⁽⁴⁹⁾ وهنا نجده يرى أن «النسب إنما فائدته هذا الالتحام، الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنُصرة وما فوق ذلك مُستغنى عنه»⁽⁵⁰⁾ فالغاية من النسب أن تحصل المناصرة «فالنسب بأي طبيعة تلبس فهو مجرد وسيلة، ويمكن أن تقوم شهرة النسب بمهمة النسب ذاته»⁽⁵¹⁾.

بمعنى أن القرابة إذا لم ينتج عنها الاتحاد والتضامن بين أفرادها أصحاب النسب الواحد والرابطة الدموية المشتركة لم تعد فيها أي فائدة ويمكن الاستغناء عنها لقوله: «وإذا وُجدت ثمرات النسب فكأنه وُجد»⁽⁵²⁾ ويُقصد بثمرة النسب فائدته لأنه قد يوجد نسب ولكن بدون فائدة أما فائدته فهي ذلك الالتحام أو اللُحمة، ومن هنا نستخرج مبدأين أساسيين هما: صلة الرحم: واقع طبيعي ونسبها المصدر الطبيعي. الوهم: وهو المصدر الغير طبيعي، أي متخيل نسميه مصدر مصطنع يستطيع الإنسان التحكم فيه على عكس صلة الرحم لا يتحكم الإنسان فيها. المصدر الحضاري: وهو الحلف والولاء أي القبائل التي تتحالف مع القبيلة القوية ضد قبائل أخرى والولاء أن تدخل قبيلة ضعيفة تحت ولاء قبيلة قوية.⁽⁵³⁾ بما أن صلة الرحم طبيعية في البشر، فالعصبية بهذا المعنى هي ظاهرة اجتماعية طبيعية، لأنها تلازم الاجتماع البشري ملازمة الطبع للشيء فهي إحدى العوارض الذاتية للاجتماع البشري والنُصرة أو التناصر تكون أشد قوة وأكثر وضوحا بين الأفراد الذين يجمعهم نسب قريب وبعكس الذين يربطهم نسب بعيد أو غيره ومن الانتساب بالولاء أو الحلف، وذلك لأن شدة التعصّب للنسب البعيد أو العام أقل من شدة التعصّب للنسب القريب.

إذن القوة تكون في النسب القريب لقرب اللُحمة، وكلما بعد ضعفت العصبية لأنها مرتبطة بالنسب هذا يعني أن صاحب المقدمة لا يُقيد العصبية بالنسب بل بالالتحام الحاصل بسببه، أو الحاصل بما يدخل فيه كما يرى أن النسب ليس دائما صريحا، لأنه لا تُوجد دماء صافية تنتقل من الخلف إلى السلف، بل إن اختلاط الأنساب هو الظاهرة السائدة. «وما زالت الأنساب تسقط من شعب إلى آخر ويلتحم قوم بآخرين في الجاهلية والإسلام والعرب والعجم»⁽⁵⁴⁾ لهذا المقصود بالنسب هو الانتماء الفعلي لجماعة معينة، أو عُصبة معينة لأن القرابة الدموية لا تكفي وحدها كمقوم للعصبية، وإنما هناك الأنفة وطول المعاشرة أيضا «إذ نُعرة كل أحد على أهل ولاته وحلفه للأنفة، التي تلحق النفس من اهتضام جارها أو قريبها أو نسيبها، بوجه من وجوه النسب، وذلك لأجل اللُحمة الحاصلة من الولاء مثل، لُحمة

النسب أو قريبا منها فالولاء لجماعة ما، يكون بسبب المعاشرة الطويلة لتلك الجماعة وتحصل اللّحمة لتلك العصبية، مثل لحمة النسب.⁽⁵⁵⁾

خاتمة:

إذن العصبية تنشأ في الأسرة، أولا وذلك لما يتمتع به أفرادها من روح القرابة أو بعبارة أخرى العصبية هي عبارة عما تتمتع به القبيلة من القوة والجاه والتضامن القرابي، اللذان يجعلان من أفرادها جمعا متراس البنيان، وقوامها في نظر ابن خلدون الاتصال برابطة النسب والقرابة والحلف والولاء وما إليها من رابطة مماثلة. حيث يفقد الفرد في هذا التجمع فرديته ويتقمص شخصية القبيلة والعائلة التي ينتمي إليها وخاصة في حالة الخطر الخارجي. فالعصبية إذن نزعة طبيعية في البشر، تؤدي إلى اتحاد والتحام أفراد النسب الواحد كما قلنا لأنها تحملهم على التعاضد والتناصر، وتستلزم استماتة كل واحد منهم دون صاحبه وتستند إلى وحدة النسب الخاص الذي يكون أقوى من الالتحام المتأتي من وحدة النسب العام لقول طه حسين: «إن التاريخ العربي لم يذكر قط شعبا يفوق الشعب العربي، في الاستمساك بعصبيته وتقديم صلة الرحم على ما سواها من الصلات، وإذا استثنى الأربعة عامي الأولى من التاريخ الإسلامي، فإن تاريخ الأمة العربية قبل الإسلام وبعده، ليس إلا سلسلة طويلة من الخصومات بين القبائل وهي خصومات منشؤها الحقيقي تلك العصبية التي دفعت إلى حد التعصب.»⁽⁵⁶⁾

وبعد تحليل نصوص المقدمة وجدنا أن العصبية هذه الظاهرة الظاربة في أعماق التاريخ العربي، لا توجد إلا في القبيلة داخل المجتمع البدوي، الذي يعتبر الثروة الخصبة التي تولد فيها العصبية المتكونة من الالتحام بالنسب أو في ما معناه حسب المفهوم الخلدوني، بمعنى أن صلة الرحم القوية القائمة على الروابط الدموية البيولوجية، يستفاد منها ذلك الالتحام، الناتج عن النسب أو ثمرة النسب وهي الترابط والتضامن الدموي الناتج عن النسب والذي يعتبر عاملا رئيسيا وهاما لقيادة العصبية وزيادة قوتها عند البدو، حيث تصبح وازعا ضد العدو الخارجي القادم للقبيلة، دون أن ننسى أن العصبية عندما تتحول إلى وازع يكون ذلك بدفاع رجال القبيلة الشجعان الذين ينتمون لنفس السلالة وينحدرون من أب واحد هذا ما يجعلهم يدافعون بكل قواهم نظرا لروح الانتماء وقوة الرابطة التي ينتمون لها.

نستنتج من هذا التحليل كله أن التوحش يساهم في عملية حضارية فريدة، رغم ما في ظاهره من تنافر وتناقض، كما أن العائلة والقرابة يعتبران من الأسباب الذاتية، لنشوء الرابطة العصبية وأن النمط المعيشي للبدو، وما يحتويه من أمن غذائي ودفعة للعدوان الخارجي من الأسباب الموضوعية لزيادة قوة

العصبية ونشوءها، إضافة إلى الأخلاق البدوية التي تعطيها القوة والخشونة أو هي التي تساعد العصبية في تأسيس السلطة وبناء المجد.

الإحالات والهوامش:

1. محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، لبنان، بيروت، 1982، ص 212.
2. صلاح مصطفى الفوال، علم الاجتماع البدوي، دار النهضة العربية، مصر، القاهرة، بدون سنة، ص 76.
3. الفوال، نفس المرجع السابق، ص 73.
4. الفوال، نفس المرجع السابق، ص 74.
5. عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، اعتناء ودراسة أحمد الزعبي، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، بدون سنة، ص 148.
6. عبد الرحمان ابن خلدون، نفس المرجع السابق، ص 148.
7. محمد عابد الجابري، نفس المرجع السابق، ص 440.
8. الجابري، نفس المرجع السابق، ص 441.
9. ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص 157 النقرة: أو المناصرة وهي شعور معنوي بين أفراد العصبية الواحدة يجعلهم يتناصرون ويتضامنون.
10. مصطفى الشكعة، الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة مصر، ط 1، 1986، ص 59.
11. الفوال، مرجع سابق، ص 157.
12. ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص 157.
13. ابن خلدون، نفس المصدر السابق، ص 150.
14. نفس المصدر السابق، ص 150.
15. الفوال، نفس المرجع السابق، ص 159.
16. ابن خلدون، نفس المرجع السابق، ص 150-151.
17. النجعة: انتجع القوم إذ ذهبوا لطلب الكلا في موضعه وتطلق النجعة على كل رحلة وانتقال من بلد إلى بلد.
18. ابن خلدون، نفس المرجع السابق، ص 150.
19. عبد الغني مغربي، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، تر: محمد الشريف بن دالي حسني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988، ص 131.
20. عبد الغني مغربي، نفس المرجع السابق، ص 131-132.
21. ابن خلدون، المقدمة، نفس المصدر السابق، ص 149.
22. عبد الغني مغربي، نفس المرجع السابق، ص 132.
23. عبد الرحمان ابن خلدون، نفس المرجع السابق، ص 156.
24. الجابري، مرجع سابق، ص 263-264.
25. الفوال، مرجع سابق، ص 260.
26. الجابري، نفس المرجع السابق، ص 266.
27. الجابري، نفس المرجع السابق، ص 261.

28. ابن خلدون، المقدمة، نفس المصدر السابق، ص156
29. نصار ناصف، الفكر الواقعي عند ابن خلدون، دار الطليعة، لبنان، بيروت، 1981، ص244-247
30. نصار ناصف، مرجع سابق، ص247
31. ابن خلدون، المقدمة، نفس المصدر السابق، ص156
32. ابن خلدون، نفس المرجع السابق، ص157
33. محمد حمداوي، القرابة والسلطة عند ابن خلدون: البذور الجينية للأنتروبولوجيا السياسية، وقائع الملتقى أي مستقبل للأنتروبولوجيا في الجزائر، الجزائر، تيميمون، 1999.
34. علي الورد، منطلق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته، معهد الدراسات العربية العالية القاهرة، 1962، ص77-78.
35. المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2003، ص603.
36. ساطع الحصري، دراسات عن مقدمة ابن خلدون، مصر، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1961، ص333.
37. محمد عابد الجابري، العصبية والدولة معالم خلدونية في التاريخ الاسلامي، نفس المرجع السابق، ص458
38. ابن خلدون، نفس المرجع السابق، ص152
39. ابن خلدون، نفس المرجع السابق، ص152
40. ابن خلدون، نفس المرجع السابق، ص172
41. نفس المرجع السابق، ص167
42. نفس المرجع السابق، ص174
43. عبد الحميد لطفي، علم الاجتماع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1977، ص119.
44. إحسان محمد الحسن، العائلة والقرابة والزواج، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت لبنان، 1981، ص9.
45. بن منظور، لسان العرب، دار صا، لبنان، بيروت، ج10 - مجلد1، ط3، 1999، ص666
46. .Encyclopédie Universalise :Parenté,Paris,S,E,1999.p180.
47. ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص157
48. ابن خلدون، نفس المرجع السابق، ص157
49. نفس المرجع السابق، ص157-158
50. نفس المرجع السابق، ص157
51. نفس المرجع السابق، ص157
52. نفس المرجع السابق، ص157
53. ملحم قربان، خلدونيات السياسة العمرانية، المؤسسة الجامعية للدراسات، لبنان، بيروت 1984، ص153.
54. ابن خلدون، نفس المرجع السابق، ص159
55. الجابري، مرجع سابق، ص257-258
56. طه حسين، محمد عبد الله عنان، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية تحليل ونقد، مطبعة الاعتماد شارع حسن الاكبر، ط1، مصر، القاهرة، 1965، ص86.